البحث ٤

سقوط الحكم البرتغالى فى الخليج العربى

د. محمد حسن عيداروس
المملكة العربية السعودية

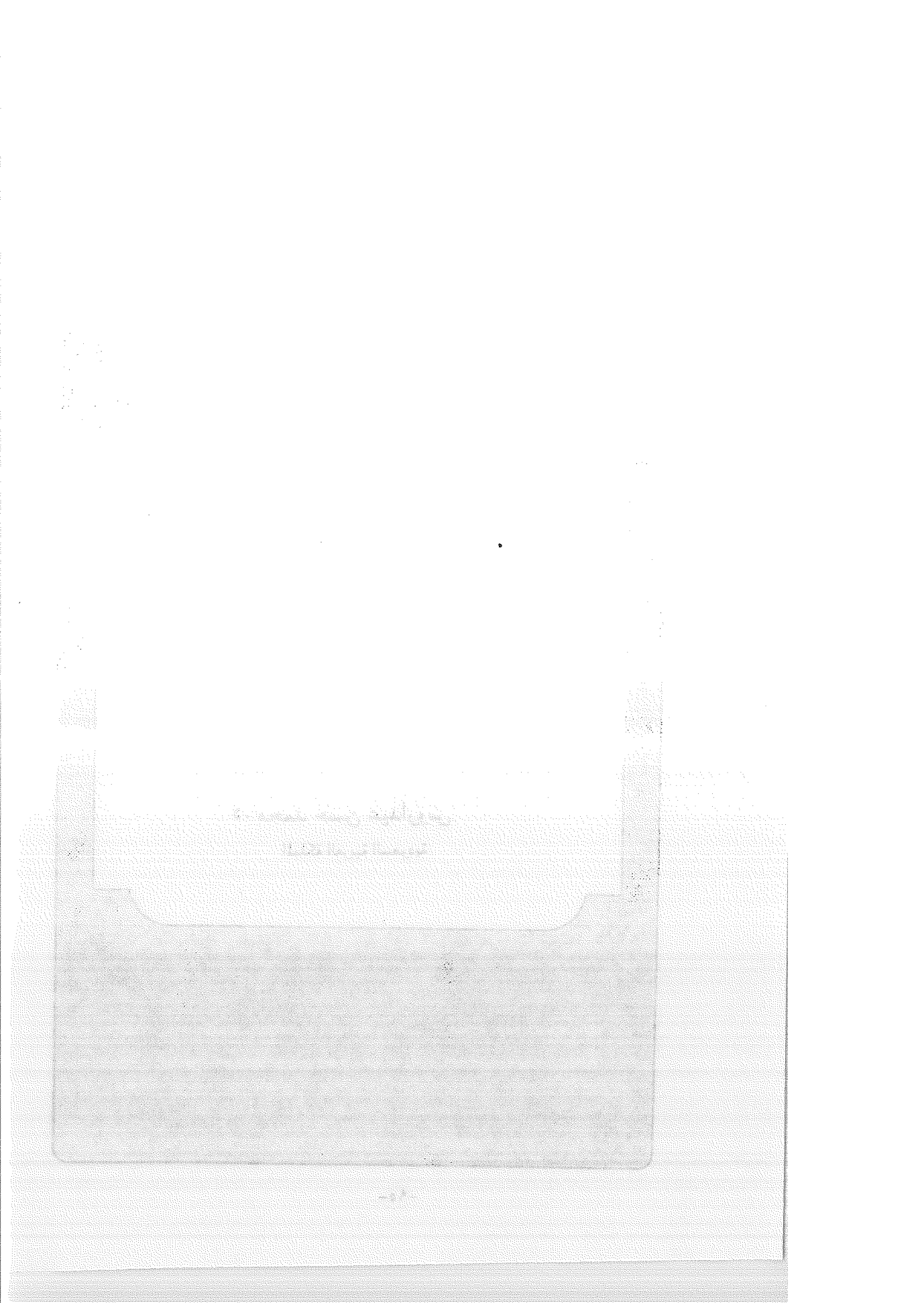

مقدمة

كان الحكم البرتغالى للخليج العربى بداية الاستعمار الأوروبى ، وتدهور التجارة العربية ، ولكن نهاية الحكم البرتغالى كانت بداية ظهور القوة الاستعمارية الأوربية الجديدة والمتمثلة فى " هولندا " و"بريطانيا "

ولكن الذى يهمنا هوقيام دولة قوية فى تاريخ الخليج العربى ، هى دولة اليعاربة التى كانت من عوامل سقوط الحكم البرتغالى فى الجانب ، بعدما سقط الحكم البرتغالى فى الجانب الشرقى من مدخل الخليج العربى . ولم تحرر دولة اليعاربة عمان بما فيها الإمارات والبحرين ومنطقة " كنج " فى الساحل الفارسى فحسب ، وإنما بدأت تلاحقه إلى الهند وشرق أفريقيا ، وحاولت معالجة هذا الموضوع بشكل متكامل ومتوافق من أسبابها ونتائجها .

وكان فشل السياسة البرتغالية فى المنطقة قد أدى إلى سقوط حكمها ، وكان من نتائجة تدهور النظام الاقتصادى القديم .وظهور الثورة الصناعية والنظام الرأسمالى الجديد فى أوروبا لتراكم رؤوس الأموال . ونهاية الوجود السياسى والعسكرى البرتغالى من الخليج العربى ، والذى بدأ من هرمز عام (١٦٢٢) وانتهى فى مسقط .

فشل السياسة البرتغاليه:

بدأت عوامل سقوط الحكم البرتغالى مع قيامه فى المنطقة ، لاتباع البرتغال سياسة فاشلة من البداية ، ولكن نظراً للتفوق العسكرى ، مقابل ضعف المقاومة العربية الوطنية ، كان ذلك من أسباب تأخر سقوط الحكم البرتغالى . ولاننسى التنافس الأوروبى ، وخاصة الأنكلو – هولندى ضد البرتغال والاسبان ، والذى جاء متأخراً أيضاً مع نهاية القرن السادس عشر ، بعد تحرر هولندا من الأسبان ومحاولة نهوض بريطانيا بكيانها . ولهذا سوف ندرس فشل السياسة البرتغالية ، التى حملت بذور الإخفاق منذ مجيئها إلى المنطقة .

فقد أدى تعارض المصالح الاقتصادية التجارية بين الأوروبيين المسيحيين الكاثوليك البرتغال و «البنادقة» إلى الصراع والعداء فى شرق البحر المتوسط ، فى الوقت الذى أدى التقاء المصالح الاقتصادية التجارية بين مسلمى «المماليك» ومسيحى «البنادقة» إلى التحالف فيما بينهما . ولهذا فإن العامل الدينى قد لايكون سببا فى بداية الصراع ، بالروح الصليبية ظاهريا . ولكن فى الحقيقة كان اندفاعا اقتصاديا وتجاريا ، والتمسك بالروح الصليبية إنما كان القصد من ورائه هو كسب العالم المسيحى الأوروبى وبابا «الفاتيكان» ورفع معنويات الجنود بالدافع والحماس الصليبى لكسب المعارك وتحقيق السيطرة والهيمنة الاستعمارية . ومع هذا يصعب الفصل بين العامل الاقتصادى والدينى ، وقد يكون فى البداية صليبيا دينيا ، ثم تحول بعد السيطرة واستغلال الشعوب فى أسيا وأفريقيا إلى العامل

الاقتصادى التجارى ، ونلاحظ أيضا فى الفترة المتأخرة قلة التعصب الدينى .

أما بالنسبة لأعمال غير الإنسانية من البطش والتنكيل والتعصب الدينى ومحاولة الوصول إلى الأماكن المقدسة فى الحجاز لتدميرها فى بداية الحكم البرتغالى للمنطقة . فيرجع هذا إلى حب الانتقام، وهو امتداد لحروب الاسترداد ضد العرب حكام شبه جزيرة «ايبريا» بالأمس . ولهذا يمكن القول بأنه من الصعب جداً الفصل بين الدافع الصليبى والدافع التجارى الاقتصادى ، أو تفضيل أحدهما على الآخر .

كان الوصول إلى الشرق للسيطرة على التجارة ، دون الحاجة إلى الوسطاء العرب والبنادقة ، من الأهداف الأساسية للسياسة البرتغالية . وبرغم أنهم حققوا هذا الهدف ، واحتلوا سواحل الهند الغربية فى «غوا» عام (١٥٠٥) ، فلماذا اتجهت السياسة البرتغالية إلى الجزيرة العربية التى لاتحتوى أى موارد اقتصادية قد تغرى بالاحتلال ؟ .

قد يرجع ذلك إلى فشل البرتغال فى تحقيق السيطرة الكاملة على التجارة التى ظلت تحت أيدى العرب ، وكذلك موانئها المزدهرة بتجارة إعادة التصدير المعروفة اليوم «بالترانزيت» مثل « البحرين وقطر وشحر ومكلا وعدن ومخا » .. وغيرها . واستمرت التجارة فى التسرب إلى « القاهرة والبصرة » (١) برغم الحصار الذى فرضه الاسطول البرتغالى القوى فى المحيط الهندى على الموانىء والسفن التجارية العربية ، وكان هذا التسرب عن طريق الخليج العربى بعامة والبحر الأحمر بخاصة ، وبدأت التجارة تعود من جديد (٢) . ويقول المؤرخ « عبد القادر عبد الله العيدروس » الذى عاصر تلك الفترة فى مخطوطته المعروفة « بالنور السافر » (٣) : « إن التجارة استمرت برغم القمع البرتغالى بين سلطنة كجرات الإسلامية فى الهند ومدن حضرموت ومنها إلى مصر » .

وهذا مادفع السياسة البرتغالية إلى السماح لبعض قادتها العسكريين بممارسة القرصنة البحرية ضد حركة التجارة العربية ، وقاموا باحتلال المصادر الرئيسية لتجارة «التوابل» فى «ملقا» بـ ماليزيا (٤) وجزر إندونيسيا لمنع عرب الحضارمة من الوصول إلى تلك المصادر الرئيسية ، إضافة إلى القضاء على الإسلام والمسلمين (٥) .

وهذا مادفع «الحضارمة» إلى التعاون مع السكان المحليين فى إيجاد مقاومة وطنية وإقامة حكم إسلامى قوى فى جزيرتى سومطرة و جاوة بإندونيسيا ، والتى استطاعت الصمود أمام الاستعمار البرتغالى حتى مجىء الهولنديين ، الذين جاءوا فى البداية كحلفاء ومساعدين ضد البرتغاليين ، وسرعان ماتحولوا إلى غزاة مستعمرين لإندونيسيا . وتدل الشواهد التاريخية على أن البرتغاليين برغم سيطرتهم على حركة التجارة الرئيسية فى هرمز وموانىء غرب الهند ومسقط والبحرين فى القرن السادس عشر ، إلا أنهم فشلوا فى السيطرة على موانىء حضرموت مثل : شحر ومكلا ثم عدن وجدة ، وبالتالى فى الحصار التجارى للبحر الأحمر ، وبعدها خسروا ملقا التى سقطت فى أيدى الهولنديين .

هذا الفشل جعل التجارة العربية فى حضرموت وعدن وجدة والسويس لاتتأثر بالعمليات البرتغالية إلا جزئيا ، ونظر التجار العرب إلى الوجود البرتغالى على أنه مجرد إزعاج عابر ، ولم يعتبروه مرحلة تاريخية جديدة ، وبذلك لم يكن تأثير البرتغال حاسما على التجارة العربية (٦) . مما جعل سواريز الذى خلف "البوكيرك" كنائب للملك فى الهند ، يتبع سياسة جديدة تختلف تماما عن السياسة البرتغالية السابقة التى اتبعها البوكيرك ، وتمخض عنها تطورات سياسية واقتصادية أدت إلى إنعاش التجارة البرتغالية ، كالتجارة العربية السائدة قبل مجىء البرتغاليين ، والتوقف عن السياسة السابقة التى لجأت إلى أساليب العنف المسلح .

ولتنفيذ هذه السياسة الجديدة ، تم تعيين ضباط جدد لجمع الضرائب من المناطق البرتغالية مثل هرمز . كما أدى إلى تحول القادة العسكريين إلى تجار ، لأن السياسة الجديدة استهدفت إعطاء الحرية للحركة التجارية التقليدية ، ولكن تحت السيطرة البرتغالية وإشرافها المباشر ، للحصول على أكبر قدر من العوائد المادية (٧) .

ولم تتغير التجارة التقليدية ، أى تجارة المضاربة التى استمرت السياسة البرتغالية تتبع فيها نفس الاساليب التى كانت موجودة قبل مجيئهم ، وهى (٨) :

أ - كميات التجارة قليلة إذا ما قورنت بالتجارة المضاربة .

ب - استهدفت السياسة البرتغالية المتاجرة كمشروع خاص .

جـ - اتباع سياسة فرض السيطرة لضمان الاستغلال المالى للتجارة ، كفرض الرسوم السنوية والجمركية على مختلف أنواع النشاط التجارى من شحن وتفريغ وتخزين فى الموانىء .

د - كانت التجارة تحت سيطرة وإشراف القادة العسكريين وكبار الموظفين ورجال الدين ورجال الطبقة الارستقراطية الإقطاعية .

ولم تدخل السياسة البرتغالية أى عنصر جديد فى التجارة التقليدية ، ولم يكن البرتغاليون سوى جامعى ضرائب ، ولم تكن «الاستادوا إنديا Esta-doa-Endia» سوى مؤسسة لتوزيع العنف المنظم مقابل رسوم الحماية ، فى حين كان الكارتازة أى "الورقة" الأداة التى تجمع "الاستادوا إنديا" الرسوم والضرائب بواسطتها ، أى ببيعها إلى التجار وأصحاب السفن . ويمكن القول بأنها مصاريف الحماية التى تقدمها الاستادوا إنديا للسماح للتجار والسفن بالمتاجرة فى المحيط الهندى ، وكل من لايحصل عليها يكون عرضة للسلب والقرصنة من قبل الأسطول البرتغالى ، كما لايسمح للسفن بمغادرة الموانىء البرتغالية إلا بعد حصولها عليها .

وتقوم السلطات البرتغالية بجانب "الكارتازة" بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع بما لايقل عن (١٠٪) ، ولهذا الغرض كان الأسطول البرتغالى يجبر السفن التجارية على

التوجه إلى ميناء هرمز أو مسقط . وقد سوغ البرتغاليون مؤسسة الكارتازة بأنها تعمل على نشر المسيحية ودورها التنصيرى لقطع العلاقات والاتصالات فيما بين المسلمين فى الشرق ، وللضغط الاقتصادى على العثمانيين . أما علاقة الكارتازة بالحكام المحليين ، فقد كانت عبارة عن الضرائب الجمركية والرسوم التى تتصل بتنظيم عمليات الشحن البحرى بين موانىء المنطقة (٩) .

عوامل فشل السياسة البرتغالية :

هناك عدة عوامل أدت إلى فشل السياسة البرتغالية فى المنطقة وأهمها :

أولاً : الروح الصليبية

قيام السياسة البرتغالية على الروح الصليبية وعقلية الاسترداد ، وحول فشل تلك السياسة يقول "يوركا" فى كتابه الذى يعتبر من أهم المصادر البرتغالية فى يومنا هذا ، ولأنه كتب عن الوجود البرتغالى وكان شاهدا على نهاية السيطرة البرتغالية بقوله : إن فشل السياسة البرتغالية يرجع إلى الفشل الكامل الذى منيت به أية محاولة لتحويل الناس إلى المسيحية (١٠) .

وجاء البرتغاليون بروح متحمسة لنشر المسيحية فى كل مكان قد سيطروا عليه ، ومنها مسقط ، فقاموا ببناء ثلاث كنائس ، ولاتزال الكنيسة الصغيرة التى بناها البرتغاليون باقية حتى الآن فى قلعة الميرانى فى حين تهدمت الكنيستان (١١) الأخريان ، أو أن العمانيين أنفسهم قاموا بهدمهما بعد تحرير مسقط .

ثانيا : الابتزاز والاضطهاد

اتجهت السياسة البرتغالية إلى ابتزاز التجار والأمراء المحليين ، واتبعت أساليب البطش والقهر فى معاملة السكان ، وسوف نورد مثالاً لسياسة البطش لأحد الضباط البرتغاليين ويدعى "روى فرير" الذى كان يصر على تنفيذ أوامره بالكامل ، وذات مرة أعدم أحد قادة الجنود المحليين لأنه أبقى على حياة فتاة إيرانية جميلة بعد أن أمر روى فرير بقتل كل الإيرانيين بغض النظر عن أعمارهم أو أنواعهم (١٢) .

ولذا كان البرتغاليون غير محبوبين من سكان المنطقة ، الذين يحتقرونهم ويمقتونهم لاحتكارهم التجارة وأنظمتهم التعسفية وكانوا يتحينون الفرص للتخلص من حكمهم وسيطرتهم (١٣) .

ثالثا : المقاومة العربية

اعتمدت السياسة البرتغالية على القوة العسكرية والتعصب والجشع فى المناطق المفتوحة ، وليس التعامل التجارى السلمى فى النشاط الاقتصادى ، مما جعلها تحمل عوامل فشلها ، خاصة عندما أعلن الحكام وشعوب المنطقة التمرد والثورات ضد وجودها العسكرى ، نتيجة للسياسة الوحشية التى اتبعها البرتغاليون مع العرب (١٤) ، مما أدى إلى قيام المقاومة

الوطنية . وأثارت روح الثورة لدى السكان المحليين الذين أخذوا يتحينون الفرصة المناسبة للانقضاض على البرتغاليين والتحرر منهم (١٥) ، علما بأن المقاومة العربية كانت قد بدأت منذ مجيء البرتغاليين ابتداء من عام ١٥١٥ الذى أخضع فيه "البوكيرك" "رئيس حامد" فى هرمز، مرورا بمقاومة عام ١٥٢٢ التى أدت إلى تدمير صحار ، ثم عودة هرمز للحكم البرتغالى بعد القضاء على المقاومة الوطنية ، مرورا بالانتفاضات الوطنية ضد الاستعمار البرتغالى فى مسقط وقلهات والبحرين عام ١٥٢٩ وكذلك المقاومة العربية الوطنية عام ١٥٨٥ فى عمان (١٦) .

ولم يهدأ الكفاح العربى ضد الاستعمار البرتغالى ، فانتهز عرب الخليج العربى الفرصة التى هيأها الصراع العثمانى - البرتغالى للتخلص من الحكم الاستعمارى ، وبدأت المقاومة العربية فى البحرين عام ١٦٠٢ ثم فى قريات بعمان عام ١٦١٩ . وبرغم نجاح الاستعمار البرتغالى فى إخمادها ، إلا أن عرب الخليج اتفقوا على قيام ثورة شاملة فى المنطقة ضد الوجود البرتغالى لمواجهة جميع المراكز والقلاع والحصون البرتغالية فى يوم واحد ، هو الحادى والعشرون من أكتوبر عام ١٦٢١ .

وهاجم العرب فى ذلك اليوم جميع المراكز والسفن البرتغالية فى البحرين وصحار وقريات ومسقط وخورفكان وقلهات ، واستمر القتال أكثر من ستة أشهر ، استولى أثناءها عرب المنطقة على عدد من الموانىء والمراكز برغم النجدات البرتغالية المتلاحقة .

لقد دل هذا التلاحم فى النضال ضد الاستعمار لدى عرب المنطقة على روح الوحدة التى تربط بين أبنائها ، برغم عدم نجاح المقاومة بسبب حدوث بعض الانشقاقات بين زعمائها .

واندلعت ثورة أخرى فى عمان عام ١٦٢٥ وبعث قادتها برسائل إلى إخوانهم العرب فى المنطقة لتوحيد الكفاح ضد الاستعمار ، وأوشكت الثورة أن تشمل المنطقة بأكملها ، لولا أن أسرع نائب الملك البرتغالى فى الهند بإرسال أحد قواده ومعه خمس بوارج حربية لإقناع زعماء العرب بعدم جدوى ثورتهم ، وأنه أقال "ديا جورى ملو" الحاكم البرتغالى فى عمان (١٧) . فى حين قام الشعب البحرينى بإقفال الطريق أمام السفن البرتغالية ، وهاجم مراكز وأماكن إقامتهم فى المنامة ، وأجبرهم على الرحيل عنها . واستمرت الاشتباكات بين الطرفين بحرا وبرا لعدة أشهر (١٨) .

ولكنها أيضا انتهت بدون تحقيق نتائج إيجابية ، لعدم التكافؤ وقلة السلاح الحديث الذى لم يكن موجودا أصلا ، وكذلك السفن الحربية الحديثة .

والأهم من هذا عدم وجود كيان عربى موحد وقوى ، ولكن العرب لم ييأسوا أو يستسلموا للحكم الاستعمارى البرتغالى ، واستمروا فى المقاومة والكفاح .

ونظراً لفشل المقاومات العربية المتلاحقة ، فإن ذلك أعطى درساً لزعماء القبائل فى عمان ، وعلمهم أن نجاح المقاومة رهن باتحادهم ، وبإنشاء دولة عمان الموحدة ، ولذا اختاروا

نظام الإمامة (١٩) .

وتزعمت عمان تحت قيادة أسرة اليعاربة المقاومة العربية ، واستطاع الإمام ناصر بن مرشد اليعربى عام ١٦٢٤ أن يطرد البرتغاليين ويحرر مدن ساحل عمان (دولة الإمارات العربية المتحدة اليوم) مثل : رأس الخيمة وخور فكان ، وأن يحقق اليعاربة بعثا جديدا للمقاومة الوطنية العربية ، وللسيطرة العمانية على المقدرات السياسية فى شرقى الجزيرة العربية (٢٠) .

رابعا : تركز الوجود البرتغالى على النقاط الاستراتيجية التجارية

لايمكن تسمية الوجود الاستعمارى البرتغالى بالإمبراطورية ، كدولة كبيرة مترامية الأطراف والحدود ، وإنما دولة استعمارية يتركز وجودها على النقاط الاستراتيجية والتجارية والممرات المائية ، وفيها المؤسسات التجارية والإدارية والعسكرية ، أى كقواعد تعمل للتجارة باستخدام العنف المسلح ، وتحتفظ فى تلك النقاط بسفن حربية محدودة بشكل دائم ، وخاصة المقر الرئيسى بـ «غوا» .

وتقوم بقية السفن الحربية بأعمال الدورية بشكل منتظم فى البحار والمحيط الهندى ، لمراقبة السفن والحركة التجارية وإخضاعها تحت السيطرة المباشرة .

خامسا : قلة العنصر البشرى

قلة العنصر البشرى فى المراكز والقواعد البرتغالية ، وهذا يرجع إلى قلة عدد سكان البرتغال ، الذى لم يتجاوز المليون خلال القرن السادس عشر ، وقد أدى هذا إلى فشل تحقيق السياسة البرتغالية ، التى لم تتمكن من الاحتفاظ بالمراكز والنقاط والقواعد البرتغالية المترامية المواقع والأطراف ، لقلة الجنود البرتغاليين وتوزيعهم على مختلف المراكز للحماية .

وإن قلة العنصر البشرى فى تلك المراكز والنقاط جعل البرتغاليين يعتمدون على المرتزقة من الهنود وغيرهم ، مما جعلهم يضطرون إلى إقامة علاقات ومعاهدات مع بعض الدول والإمارات ، لتجنيد بعض أفرادها كمرتزقة ، وخاصة من الهندوس .

كما لم يصادفوا صعوبات فى تجنيد الإيرانيين والبلوش حيث كان معظم المرتزقة من البلوش ، ومن الطبيعى أن لايكون دفاع هؤلاء المرتزقة مثل دفاع البرتغاليين أنفسهم (٢١) .

وتقول المصادر البرتغالية إن هذه القوات الثانوية من المرتزقة كانت تؤدى واجبها بولاء مثالى ، طالما كانت تتلقى رواتبها بانتظام وبشكل كامل (٢٢) .

وحاول البرتغاليون الابتعاد وعدم التعاون مع البحارة المسلمين ، من الهند خاصة ، لفترة طويلة . ولكنهم فى نهاية القرن السادس عشر ، تعاونوا معهم بشكل مطلق ، محاولين تنصيرهم ونشر الدين المسيحى ، ولكنهم أخفقوا فى ذلك ولم ينجحوا .

واعتمدوا أيضا على العناصر الأخرى مثل الرقيق والمرتزقة من بعض الأوروبيين والهنود من مسيحيى «الرز» أى الذين تنصروا من أجل المال ، وليس دفاعا عن المصالح

القومية للبرتغال ، مما يعنى عدم حماستهم للقتال .

وهذا ما أدى إلى قلاقل ومشكلات فى البحرية البرتغالية ، إضافة إلى حوادث التمرد لكبار الضباط البرتغاليين (٢٣) .

سادسا : انتشار الرشوة والفساد

انتشرت الرشوة والفساد بين البرتغاليين ، حتى أصبحت السمة البارزة فيهم ، وأصبحت مؤسسة شبه رسمية ، وتباع المناصب العليا فى الدولة والمراكز القيادية والإدارية من قبل التاج البرتغالى .

سابعا : ضم البرتغال لأسبانيا

تم ضم البرتغال لأسبانيا عام ١٥٨٠ بقيادة فيليب الثانى (٢٤) ولم تستقل البرتغال حتى عام ١٦٤٠ تحت قيادة أسرة براغزا .

ويرى معظم المؤرخين أن هذا الضم أو توحيد أسبانيا والبرتغال ، أضعف الإدارة الاستعمارية فى الهند وهرمز ومسقط ، نتيجة لفقدان الدعم الآتى من وطنها الأم .

ولكننا نرى عكس ذلك ، ونعتبر هذه وجهة النظر الأوروبية المسيحية للتقليل من أهمية المقاومة الوطنية العربية وخاصة حكم أئمة اليعاربة .

واستمرت السياسة البرتغالية تجاه الخليج العربى بصفة عامة وتجاه التجارة العربية فى المحيط الهندى بصفة خاصة ، كما هى أثناء الوحدة الأسبانية البرتغالية ، تحت حكم التاج الاسبانى ، إن لم تكن أقوى من قبل .

نظراً لأن هذا الاتحاد قد أثر فى قوة البرتغاليين ، مما جعلهم يتعرضون للسفن التجارية الهولندية وغيرها ، ومنعها من التوجه إلى ميناء لشبونه ، بغية تصدير المنتجات التجارية مباشرة إلى مختلف أنحاء أوروبا من لشبونة وعلى سفنهم فقط ، لجنى الأرباح كاملة ، ورفعوا أسعار تلك المنتجات الشرقية مثل التوابل والبهارات ، وهذا مما دفع هولندا إلى أن تسعى للوصول إلى مصادرها (٢٥) .

وشدد الأسبان قبضتهم على المستعمرات والمراكز والقواعد البرتغالية ، وقدموا لها كل الدعم المطلوب ، وقاموا بزيادة التحصينات العسكرية . ويكفى أن نلاحظ القلعتين الكبيرتين وهما "الميرانى والجلال" واسماهما القديمان "كابيتان وسان جوا" فى مسقط وقد تم بناؤهما من قبل الأسبان عام ١٥٨٦ (٢٦) . وهما من التحصين قائمتين إلى يومنا هذا . وقد بدأ الضعف والفشل مع بداية الممارسات الخاطئة للسياسة البرتغالية منذ مجيئها إلى المنطقة فى بداية القرن السادس عشر واستمر حتى نهايته ، أو حتى مابعد الانفصال أو الاستقلال عن اسبانيا .

ثامنا : احتكار السلع

اعتمدت السياسة البرتغالية على الاحتكار البيروقراطى للسلع المربحة بطريقة

تقليدية، فساهم فى فرض الهيمنة البورجوازية التجارية الحكومية، نتيجة للتعبئة الاقتصادية.

وأحدثت التجارة البرتغالية التراكم الرأسمالى الذى يوفق بين التجار والإدارة الارستقراطية ، كما حدث لدى هولندا وبريطانيا فيما بعد (٢٧) .

واتبعت الحكومة البرتغالية سياسة مركزية ومتحيزة وغير رشيدة ، وكانت على حد تعبير النظريات الاقتصادية السائدة فى ذلك الوقت - تنزع إلى التضحية بكل شىء فى سبيل تكديس التوابل (٢٨) .

وإن هذا الاحتكار الحكومى البرتغالى للسلع المربحة ، لم يترك المجال مفتوحا للتجار البرتغاليين لتأسيس شركات احتكارية على غرار الشركات التى أنشأها الهولنديون والبريطانيون ، لربط مصالح الطبقة الرأسمالية والأفراد بحركة الاستعمار البرتغالى ، كما حدث للاستعمار الهولندى البريطانى بالنسبة لشركات

تاسعا : عدم الاهتمام بالتطور الصناعى

أدت سياسة الإرهاب والتسلط على القوى المحلية الضعيفة إلى عدم الاهتمام من قبل البرتغاليين بالتطور الصناعى السريع للدول الأوروبية البحرية الأخرى ، التى بدأت تنافس الوجود البرتغالى فى أواخر القرن السادس عشر ، مثل هولندا وبريطانيا وفرنسا .

ويرجع ذلك لامتداد السياسة البرتغالية التوسعية إلى الأمريكتين والمحيط الهندى ، على الطريقة التى اتبعتها وذكرناها سابقا . مما جعل من البرتغاليين جامعين للضرائب ومصدرين للعنف المنظم ، مقابل الحماية من الدرجة الأولى . وكل ذلك أدى إلى تدفق الأموال والذهب والفضة والأرباح الهائلة الناتجة عن مبيعات السلع الاحتكارية ، على البرتغال وأسبانيا ، والتى لم يتم استثمارها هناك لتطوير النظام الاقتصادى والإدارى والصناعى . وإنما ذهبت تلك الأموال الكثيرة بدورها إلى دول وسط وغرب أوروبا ، وخاصة إلى جنوة فى إيطاليا وبافاريا فى ألمانيا وهولندا وفرنسا وبريطانيا ، مما نتج عنه تطور النظام الاقتصادى الرأسمالى الأوروبى الغربى فى تلك الدول ، وذلك بالإضافة إلى تحقق التقدم الصناعى والتقنى .

نتائج إخفاق وفشل السياسة البرتغالية

كان من أهم نتائج إخفاق وفشل السياسة البرتغالية ، تدهور النظام الاقتصادى القديم والتجارى التقليدى المتمثل فى تجارة المضاربة ، وبداية ظهور النظام الاقتصادى الجديد والمتمثل فى الرأسمالية الصناعية ، التى بدأت تنشأ فى وسط وغرب أوروبا نظراً لتدفق الأموال البرتغالية والاسبانية . أما على الصعيد المحلى ، فإن أخطاء وإخفاق وفشل السياسة البرتغالية قد أدت إلى ظهور المقاومة الوطنية العربية ، المتمثلة فى اليعاربة بعمان ، إضافة إلى التنافس الهولندى - البريطانى مما كان له دور رئيسى فى إنهاء الوجود السياسى والعسكرى وبالتالى سقوط الحكم البرتغالى فى الخليج العربى .

أولا : تدهور النظام الأقتصادى القديم وظهور الرأسمالية الصناعية فى غرب أوروبا

التطور والتقدم الاقتصادى والصناعى لأوروبا الغربية ساعد على ظهور صناعات جديدة ومتنوعة ، مما خلق لها أسواقا كبيرة وكثيرة فى مختلف أنحاء المستعمرات والأسواق العالمية ، وساعد على تبادل المنتجات المحلية والمواد الخام والحصول على أموال كثيرة .

كل ذلك كان على حساب البرتغال واسبانيا ، اللتين كان همهما منحصرا فى تجارة السلع المربحة مثل البهارات والتوابل ، وإحتكارها تحت سيطرتهم (٢٩) فى المحيط الهندى . وعدم استثمار الأموال الفائضة فى الصناعة ، أدى إلى تدفقها إلى أسواق أوربا الغربية ، لشراء الكماليات والأستثمار هناك . كما هو حادث اليوم لدول البترول التى لا تعرف كيف تستثمر أموال النفط فى الصناعة ، سواء فى دولها أو الدول العربية الشقيقة لضمان المستقبل ، وإنما تذهب تلك الأموال إلى أسواق غرب أوربا والولايات المتحدة ، كما حدث لأموال البرتغال واسبانيا اللتين تخلفتا عن التطور والصناعى .

وإستمرار تدفق الذهب والفضة من المستعمرات . نتيجة لسياسة التوسع الاستعمارى البرتغالى والأسبانى فى آسيا وأفريقيا وأمريكا ، أدى لإجتياز محنة الإقطاع ، وظهور أزمة النظام الإقتصادى ما قبل الرأسمالى ، حتى وصل إلى ثورة الأسعار فى منتصف القرن السابع عشر ، ونتج عنه فيما بعد كساد واسع النطاق فى الدولة العثمانية والمشرق العربى لتدفق الذهب والفضة . ومن نتائجها كان نشوء وتطور الرأسمالية بقيام الثورة الصناعية ، بعد تدفق الأموال لدول غرب أوربا ، وهذا ما دفع تلك الدول للبحث والاستحواذ على أسواق جديدة لمنتجاتها ، ثم الإستيلاء على موارد المستعمرات والمناطق الجديدة ، والسيطرة على طاقاتها البشرية والطبيعية من المواد الأولية والخامات اللازمة للصناعة ، وتحويلها لخدمة النظام الرأسمالى الاحتكارى (٣٠) .

وبالتالى ظهور الاستعمار والنظام الرأسمالى لدى أوروبا الغربية . ولهذا لم تكن البرتغال وأسبانيا إلا وسيلتين لمجيء وتطور الاستعمار الحديث والنظام الاقتصادى الرأسمالى . وتحقق ذلك عن طريق شركات الهند الشرقية الأوربية لكل من هولندا وبريطانيا وفرنسا ، والتى جاءت عن طريق التجارة ثم احتكارها واستعمار دول المنطقة فى النهاية .

فى حين استمرت تجارة المضاربة التقليدية وأساليبها التى تكيف معها الإستعمار البرتغالى . والتى كانت سائدة قبل مجيئه ، فقد وصلت إلى حدود التشبع ، مما أحدث مواجهة بين التجارة التقليدية المحلية والبرتغالية وبداية النظام الرأسمالى فى نهاية القرن السادس عشر . مع ظهور شركات الهند الشرقية الهولندية والبريطانية منذ أوائل القرن السابع عشر.

ودخلت تلك الشركات كمنافسين للبرتغاليين ، للسيطرة وبسط النفوذ وتحت ستار التجارة ، ونجحنا فى زحزحة البرتغاليين عن مكانتهم التى حصلوا عليها ، واشتبكوا معهم فى معارك أسفرت عن سقوط الحكم البرتغالى فى " هرمز " . وذلك كان أكثر الأوضاع

حسما ، لعدم وجود شركة تجارية للبرتغال ، كما هو الحال للهولنديين والبريطانيين لاعتبارهم التجارة على أنها احتكار ملكى (٣١) وبدون أية كفاءه فى المجال التجارى .

ونظرا لأن هرمز لم تكن إلا قاعدة ومركزا للتجارة التقليدية فى أوج توسعها ، ومعقل الإمبريالية التقليدية قبل الرأسمالية ، ومن ثم فإنها لم تكن مهيأة لهذه المواجهة ، وبعيدة عن تطور النظام الاقتصادى التجارى الذى بدأ فى دول غرب أوروبا ، وخاصة هولندا ثم بريطانيا ، وبذلك فشلت تلك السياسة والنظام الإقتصادى والتجارى التقليدى مع سقوط "هرمز" نهائيا.

والفرق الوحيد بين التجارة التقليدية وبين ما أدخله البرتغاليون فى المنطقة ، هو أن التجار المحليين أصبحوا يتعاملون مع ممثلى أو وكلاء دولة استعمارية عسكرية تستخدم العنف المنظم ، وأسعار البيع ثابتة بالاتفاقيات الرسمية مع الدول فى البر ، وفى البحر أصبحت تضمنه عن طريق " الكارتازة " دون أن تغير من واقع العلاقات الاقتصادية والسياسية على المستوى المحلى (٣٢) .

ثانيا : نهاية الوجود السياسى والعسكرى البرتغالى من الخليج العربى

أ - نهاية الوجود البرتغالى من هرمز عم (١٦٢٢) :

عندما وصل الأسطول البريطانى إلى ميناء " جاسك " على ساحل " مكران " فى " بلوشستان " فى مهمة تجارية عادية ، طلب إمام " قولى خان " حاكم " شيراز " فى عام (١٦٢٢) من الوكيل البريطانى فى ميناء جاسك ومن أسطوله طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، وفى حالة رفض طلبه فإن ذلك قد يؤدى إلى إلغاء الإمتيازات البريطانية .

ووجد ممثلو الشركة البريطانية أنفسهم فى ورطة حقيقية لعدم وجود رغبة لمحاربة البرتغاليين المسيحيين من جانب ، ومن جانب آخر عدم وجود رغبة فى فقدان مصالحهم التجارية الرابحة فى فارس ، ففضلوا الأخير ، ولكنهم حددوا شروطا معينة مقابل قيامهم بتحرير هرمز من البرتغال وتسليمها لفارس ، وفيما يلى تلك الشروط (٣٣) .

١ - تقسيم هرمز بالتساوى بينهم وبين الفرس .

٢ - تقسيم الرسوم الجمركية العائدة من مرور التجارة فى هرمز بين الجانبين مستقبلا .

٣ - يقوم البريطانيون بتجارتهم فى هرمز بدون رسوم جمركية إلى الأبد .

وقد هاجمت السفن البريطانية وعدد كبير من السفن المحلية مع القوات الفارسية المرابطة فى " جمبرون "(بندر عباس حاليا) وتوجهوا إلى " قشم " واستولوا عليها ، ثم إلى هرمز ، وطرد البرتغاليون منها (٣٤) فى عام (١٦٢٢) .

وبعد طرد البرتغاليين من هرمز ، تعزز مركز البريطانيين فى المنطقة ، وحصلوا على ميناء حر أكثر أهمية من ميناء " جاسك " وتم التصديق على فرمان عام (١٦١٧) الذى ينص على إمتيازات خاصة لبريطانيا فى فارس ، كما حصلوا على إمتيازات جديدة تمنحهم الحق فى شراء أية كميات بدون حدود معينة من الحرير الفارسى فى أى ميناء " من موانى

أولا : تدهور النظام الأقتصادى القديم وظهور الرأسمالية الصناعية فى غرب أوروبا

التطور والتقدم الاقتصادى والصناعى لأوروبا الغربية ساعد على ظهور صناعات جديدة ومتنوعة ، مما خلق لها أسواقا كبيرة وكثيرة فى مختلف أنحاء المستعمرات والأسواق العالمية ، وساعد على تبادل المنتجات المحلية والمواد الخام والحصول على أموال كثيرة .

كل ذلك كان على حساب البرتغال واسبانيا ، اللتين كان همهما منحصرا فى تجارة السلع المربحة مثل البهارات والتوابل ، وإحتكارها تحت سيطرتهم (٢٩) فى المحيط الهندى . وعدم استثمار الأموال الفائضة فى الصناعة ، أدى إلى تدفقها إلى أسواق أوربا الغربية ، لشراء الكماليات والأستثمار هناك . كما هو حادث اليوم لدول البترول التى لا تعرف كيف تستثمر أموال النفط فى الصناعة ، سواء فى دولها أو الدول العربية الشقيقة لضمان المستقبل ، وإنما تذهب تلك الأموال إلى أسواق غرب أوربا والولايات المتحدة ، كما حدث لأموال البرتغال واسبانيا اللتين تخلفتا عن التطور والصناعى .

وإستمرار تدفق الذهب والفضة من المستعمرات . نتيجة لسياسة التوسع الاستعمارى البرتغالى والأسبانى فى آسيا وأفريقيا وأمريكا ، أدى لإجتياز محنة الإقطاع ، وظهور أزمة النظام الإقتصادى ما قبل الرأسمالى ، حتى وصل إلى ثورة الأسعار فى منتصف القرن السابع عشر ، ونتج عنه فيما بعد كساد واسع النطاق فى الدولة العثمانية والمشرق العربى لتدفق الذهب والفضة . ومن نتائجها كان نشوء وتطور الرأسمالية بقيام الثورة الصناعية ، بعد تدفق الأموال لدول غرب أوربا ، وهذا ما دفع تلك الدول للبحث والاستحواذ على أسواق جديدة لمنتجاتها ، ثم الإستيلاء على موارد المستعمرات والمناطق الجديدة ، والسيطرة على طاقاتها البشرية والطبيعية من المواد الأولية والخامات اللازمة للصناعة ، وتحويلها لخدمة النظام الرأسمالى الاحتكارى (٣٠) .

وبالتالى ظهور الاستعمار والنظام الرأسمالى لدى أوروبا الغربية . ولهذا لم تكن البرتغال وأسبانيا إلا وسيلتين لمجيء وتطور الاستعمار الحديث والنظام الاقتصادى الرأسمالى . وتحقق ذلك عن طريق شركات الهند الشرقية الأوربية لكل من هولندا وبريطانيا وفرنسا ، والتى جاءت عن طريق التجارة ثم احتكارها واستعمار دول المنطقة فى النهاية .

فى حين استمرت تجارة المضاربة التقليدية وأساليبها التى تكيف معها الإستعمار البرتغالى . والتى كانت سائدة قبل مجيئه ، فقد وصلت إلى حدود التشبع ، مما أحدث مواجهة بين التجارة التقليدية المحلية والبرتغالية وبداية النظام الرأسمالى فى نهاية القرن السادس عشر . مع ظهور شركات الهند الشرقية الهولندية والبريطانية منذ أوائل القرن السابع عشر.

ودخلت تلك الشركات كمنافسين للبرتغاليين ، للسيطرة وبسط النفوذ وتحت ستار التجارة ، ونجحتا فى زحزحة البرتغاليين عن مكانتهم التى حصلوا عليها ، واشتبكوا معهم فى معارك أسفرت عن سقوط الحكم البرتغالى فى " هرمز " . وذلك كان أكثر الأوضاع

حسما ، لعدم وجود شركة تجارية للبرتغال ، كما هو الحال للهولنديين والبريطانيين لاعتبارهم التجارة على أنها احتكار ملكى (٣١) وبدون أية كفاءه فى المجال التجارى .

ونظرا لأن هرمز لم تكن إلا قاعدة ومركزا للتجارة التقليدية فى أوج توسعها ، ومعقل الإمبريالية التقليدية قبل الرأسمالية ، ومن ثم فإنها لم تكن مهيأة لهذه المواجهة ، وبعيدة عن تطور النظام الاقتصادى التجارى الذى بدأ فى دول غرب أوروبا ، وخاصة هولندا ثم بريطانيا ، وبذلك فشلت تلك السياسة والنظام الإقتصادى والتجارى التقليدى مع سقوط "هرمز" نهائيا .

والفرق الوحيد بين التجارة التقليدية وبين ما أدخله البرتغاليون فى المنطقة ، هو أن التجار المحليين أصبحوا يتعاملون مع ممثلى أو وكلاء دولة استعمارية عسكرية تستخدم العنف المنظم ، وأسعار البيع ثابتة بالاتفاقيات الرسمية مع الدول فى البر ، وفى البحر أصبحت تضمنه عن طريق " الكارتازة " دون أن تغير من واقع العلاقات الاقتصادية والسياسية على المستوى المحلى (٣٢) .

ثانيا : نهاية الوجود السياسى والعسكرى البرتغالى من الخليج العربى

أ - نهاية الوجود البرتغالى من هرمز عم (١٦٢٢) :

عندما وصل الأسطول البريطانى إلى ميناء " جاسك " على ساحل " مكران " فى " بلوشستان " فى مهمة تجارية عادية ، طلب إمام " قولى خان " حاكم " شيراز " فى عام (١٦٢٢) من الوكيل البريطانى فى ميناء جاسك ومن أسطوله طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، وفى حالة رفض طلبه فإن ذلك قد يؤدى إلى إلغاء الإمتيازات البريطانية .

ووجد ممثلو الشركة البريطانية أنفسهم فى ورطة حقيقية لعدم وجود رغبة لمحاربة البرتغاليين المسيحيين من جانب ، ومن جانب آخر عدم وجود رغبة فى فقدان مصالحهم التجارية الرابحة فى فارس ، ففضلوا الأخير ، ولكنهم حددوا شروطا معينة مقابل قيامهم بتحرير هرمز من البرتغال وتسليمها لفارس ، وفيما يلى تلك الشروط (٣٣) .

١ - تقسيم هرمز بالتساوى بينهم وبين الفرس .

٢ - تقسيم الرسوم الجمركية العائدة من مرور التجارة فى هرمز بين الجانبين مستقبلا .

٣ - يقوم البريطانيون بتجارتهم فى هرمز بدون رسوم جمركية إلى الأبد .

وقد هاجمت السفن البريطانية وعدد كبير من السفن المحلية مع القوات الفارسية المرابطة فى " جمبرون "(بندر عباس حاليا) وتوجهوا إلى " قشم " واستولوا عليها ، ثم إلى هرمز ، وطرد البرتغاليون منها (٣٤) فى عام (١٦٢٢) .

وبعد طرد البرتغاليين من هرمز ، تعزز مركز البريطانيين فى المنطقة ، وحصلوا على ميناء حر أكثر أهمية من ميناء " جاسك " وتم التصديق على فرمان عام (١٦١٧) الذى ينص على إمتيازات خاصة لبريطانيا فى فارس ، كما حصلوا على إمتيازات جديدة تمنحهم الحق فى شراء أية كميات بدون حدود معينة من الحرير الفارسى فى أى ميناء " من موانى

فارس دون أي رسوم جمركية (٣٥) .

بعد سقوط هرمز أقام البرتغاليون وكالة لهم فى ميناء " كنج " على الساحل الفارسى، وعقدوا اتفاقا مع الفرس عام (١٦٢٥) اعترفوا فيه بسيادة الفرس على هرمز وقشم وانتهز الشاه عباس هذه الفرصة وأقام ميناء جديدا فى مواجهة هرمز ، محل قرية قديمة ، وأطلق عليه أسم " بندر عباس " واكتسب هذا الميناء أهمية خاصة فى الخليج العربى منذ ذلك الحين حتى اليوم (٣٦) .

ب – تحرير عمان من الاستعمار البرتغالى :

إن الممارسات اللاإنسانية للإستعمار البرتغالى ، من تقتيل وتخريب وتدمير وحرق المدن وإغراق السفن وتحطيم الاقتصاد وانتزاع المراكز والأسواق ، لعبت دورا فى نفوس العمانيين (٣٧) . ودفعتهم إلى جمع الكلمة وتوحيد الصفوف .

وقد تشاور علماء المسلمين على أن ينصبوا لهم إماما ، واجتمع العلماء والبالغ عددهم واحدا وسبعين (٣٨) عالما وبايعوا الإمام " ناصر بن مرشد اليعربى " إماما على عمان فى عام (١٦٢٤) . وبعد انتخابه ، قام الإمام ناصر بن مرشد بتوحيد البلاد أولا ، وذلك بإخضاع حكام المناطق العمانية .

وكان الوضع فى عمان قبل مبايعة ناصر بن مرشد ، جزء تحت الأحتلال البرتغالى مثل : صحار ومسقط وقريات وصور ، إضافة إلى خور فكان ورأس الخيمة (وهما الآن ضمن حدود دولة الإمارات العربية المتحدة) أما فى الداخل لكل منطقة حاكم مستقبل ، مثل . الرستاق ونخل وسمد وابرا وازكى ونزوى ومنح وحصن بلاد سبت وحصن الغبى وحصن مقنيات وبيسات وحصن توام وحصن لوى (٣٩) .

ولقد ساهمت العوامل التى ذكرناها سابقا فى إضعاف البرتغاليين وتقليص نفوذهم ، ولكن نمو قوة عرب عمان كان العامل الحاسم فى سقوط الحكم البرتغالى نهائيا من الخليج العربى . نعم لقد عوض البرتغاليون عن خسارتهم لهرمز ، بزيادة نشاطهم وقدراتهم التجارية والعسكرية فى مسقط (٤٠) كما عززوا وجودهم فى رأس الخيمة وخورفكان ، فى الوقت الذى كان العمانيون يتخفزون فيه للظهور كقوة فعالة فى المنطقة .

وكان قيام حكم الأئمة أو الإمامة فى عمان فاتحة لمرحلة مهمة ، ليس لعمان فحسب وإنما للخليج العربى . لقد تمتعت عمان فى تلك الفترة بالرفاء والقوة والمجد بشكل لم يسبق له مثيل (٤١) ، والفضل يعود فى ذلك لمؤسسها الإمام ناصر بن مرشد اليعربى .

فقد أخضع هذا الأمام مع بداية حكمه ، جميع القبائل العمانية التى رفضت الاعتراف به ، وما أن تم له هذا حتى أعلن جهاده المقدس ضد البرتغاليين ، وشن حربا بلا هوادة . وأرسل الإمام ناصر جيشا بقيادة الشيخ مسعود بن رمضان ، ودارت معركة ضد البرتغاليين فى منطقة " طوى الرولة " بالقرب من مسقط ، لكنها انتهت بعقد اتفاق كانت شروطه فى

صالح العمانيين ، وهى (٤٢) .

أ - يتنازل المسيحيون عن كل الأراضى والمبانى التابعة لهم فى منطقة صحار .

٢ - يدفع البرتغاليون جزية سنوية للإمام (وجمع الشيخ مسعود الضريبة قبل مغادرته مسقط) .

٣ - يعامل البرتغاليون المسلمين معاملة حسنة فى مسقط ومطرح.

وبالرغم من أن تلك المعركة لم تنة الوجود البريطانى فى مسقط ، إلا أنه ترتب عليها نتائج عديدة منها :

١ - مثلت الشروط الآنفة الذكر ضربة قوية للبرتغاليون وتدميرا تجاريا وعسكريا لهم ، وشكلت خطرا على مستقبلهم فى عمان ، وإنها كانت بمثابة التمهيد الحقيقى لسقوط حكمهم فى المنطقة .

٢ - تغير وضع البرتغاليين من الهجوم إلى الدفاع . وقبولهم الجزية يعنى الإستسلام ضمنا للإمام، وهذا النصر دفع العمانيين إلى تصفية باقى الوجود البرتغالى فى عمان (٤٣) .

٣ - هزت تلك الإتفاقية الحكومة البرتغالية فى لشبونة ، فعزلت القائد البرتغالى المسؤول عن توقيعها ، وأعطت أوامرها مؤكدة ضرورة الحفاظ على مسقط ، وأن ترابط سفن حربية بشكل دائم ، وعدم السماح للعرب بالإقامة فى مسقط ، وأن يعزز ما تبقى من القلاع .

ولكن هذه الاجراءات لم تمنع مصير البرتغاليين المحتوم ، وعززت هذه الإتفاقية جهود التحرير ، وأرسل الإمام ناصر الجيش العمانى لتحرير رأس الخيمة ، التى كان فيها قلعتان ، إحداهما للبرتغال والأخرى لفارس .

وشن القائد العمانى " على أحمد بن عثمان النزوى " هجوما ناجحا على حصن ناصر الفارسى . وبرغم مساعدة البرتغاليين للفرس ، إلا أن العمانيين تمكنوا من الإستيلاء عليه ، وبعدها حاصروا الحصن البرتغالى واستولوا عليه (٤٤) . وبذلك كانت رأس الخيمة أول مدينة عمانية يتم تحريرها من الإستعمار البرتغالى . وتوجه الجيش العمانى من رأس الخيمة إلى " دبا " وعلى رأسه " خميس بن محزم " ونجح فى تحريرها من الإستعمار البرتغالى . وهى المدينة الثانية من المدن العمانية التى يتم تحريرها .

وقد جاء فى كتاب " عبيد الله بن خلفان بن قيصر " الذى كتب عن الإمام ناصر بن مرشد " فى منتصف القرن السابع عشر (٤٥) . وبالتالى هو من أهم وأقدم المصادر العمانية وأقربها للأحداث المعاصرة للإمام ناصر بن مرشد ، وكان قد كتب فى حياته ، وبناء على طلب الوالى (٤٦) حيث يقول : " كان خميس بن محزم مجدا مجتهدا مشمرا فى سبيل الله أذياله، باذلا فى الجهاد حينئذ نفسه وماله ، وكان بقرية (دبا) حصن بساحل البحر للنصارى (البرتغال) فدخل جيش المسلمين البلد ليلا أو نهارا ، واستولى على جميع أهلها ، ونخلها جهارا ، فاستذلت له دولة المشركين غاية الاستذلال " (٤٧) .

وبعد تحرير رأس الخيمة وخور فكان وديا فى ساحل عمان (دولة الإمارات العربية المتحدة حاليا) وجه الإمام ناصر بن مرشد كافة إمكانياته لتحرير صحار ومسقط ، وحشد أعدادا كبيرة من الجنود ، فحرر صحار ، ولكنه لم يتمكن من تحرير مسقط ، وذلك نظرا لوفاته عام (١٦٤٩) .

وبذلك صفى الوجود البرتغالى من جميع أنحاء عمان ، ماعدا مسقط ، وجعل منها دولة موحدة قوية ، وتمت مبايعة سلطان بن سيف خلفا للإمام ناصر بن مرشد اليعربى .

وحاصر الإمام سلطان بن سيف مسقط عام (١٦٥٠) وباغتت مجموعة صغيرة من المهاجمين العمانيين المدينة أثناء الليل ، فانتشر الرعب بين صفوف البرتغاليين الذين فروا إلى سفنهم الراسية فى الميناء ، وتمكن العمانيون من أسر سفينتين مع من كان على ظهرهما ، وحوصرت القلعة . وعندما وصلت الأنباء المفزعة إلى الهند ، سارعت السلطات البرتغالية إلى إرسال أسطول قوى إلى مسقط ، ولكنه جاء متأخرا بعدما استسلمت الحامية الباقية فى القلعة فى الثالث والعشرين من يناير (١٦٥٠) (٤٨) .

تحرير مسقط وجه ضربة قوية للحكم البرتغالى فى الخليج العربى . وفى نفس الوقت حرر العمانيون مدينة " خصب " فى شبه جزيرة " مسندم " وبذلك تم تحرير جميع الأراضى العمانية . بما فيها ساحل عمان . وكان ذلك إيذانا بسقوط الحكم البرتغالى من عمان والخليج العربى . بعدما دمروا مدينة " كنج " آخر معقل للبرتغاليين فى الخليج العربى على ساحل الفارسى عام (١٦٩٥) .

لقد أدى قيام دولة اليعاربة إلى سقوط الحكم البرتغالى ، وعزز استقلالية وسيادة الأراضى العربية فى شرق الجزيرة ، مما نتج عنه هجرة العديد من القبائل العربية ، من غرب ووسط الجزيرة العربية ، واستقرارها على سواحلها الشرقية ، وقيام دويلات وقوى بحرية . وبسقوط مسقط ، خسر البرتغاليون أهم وأقوى معقل لهم فى الخليج العربى (٤٩) .

وكتب البرتغالى " أنطونيو بوكاردو " الذى عاصر تلك الأحداث قائلا : كان قد حدث تغييران مهمان ، وهما تولى اليعاربة الحكم ، وتصميم البرتغال على تقوية أوضاعهم العسكرية فى عمان ، واحتلال المزيد من القلاع والحصون بعدما فقدوا مركزهم فى هرمز على أيدى البريطانيين والهولنديين . وكان بوكاردو متأثرا بقوة الإمام ناصر بن مرشد ، ويقول عنه. إنه كان قد جعل نفسه قبلها بسبع سنوات أعظم حكام الجزيرة العربية شأنا ، وكان تحت إمرته خمسة عشر ألفا من الفرسان ، وكان بمقدوره أن يحصل على المزيد بسهولة . وكانت لديه أيضا فرقه من الجمال التى لم تكن تقل عن الجياد فى سرعتها وتحملها ، ولم تكن هذه القوات الراكبة تستطيع مهاجمة مسقط التى تحميها السلسلة الجبلية ، ولكن مشاته كانوا قادرين تماما على تسلقها والهبوط منها . (٥٠) .

ويقول : « وكانت الصداقة مع الإمام محفوفة بالمخاطر دائما ، فقد كان مصلحا (

مسلما دينيا) ويرى أن الإسلام يفرض الحرب الدائمة ضد المسيحيين ، وكان يبرم الاتفاقيات ولكنه لايحفظها إلا طالما كانت تناسبه ، وحتى ذلك الوقت لم يكن قد تعامل مع البريطانيين والهولنديين ، وكان يجمع بيده بين السلطتين الزمنية والروحية ، وكانت سلطته تجعله محترما ومطاعا مثل أى حاكم عظيم فى العالم » (٥١) .

وأصبحت عمان فى عهد اليعاربة تحت حكم مركزى قوى ، بعد أن كانت إمارات مجزأة ومتفرقة ، ثم بعد الاتحاد استطاعت طرد الاستعمار البرتغالى من عمان والخليج العربى وشرق أفريقيا جميعها ماعدا موزمبيق وتكوين أول دولة أسيوية - أفريقية تضم عمان فى أسيا وشرق أفريقيا ، وذلك بعدما حولوا الصراع مع البرتغاليين من البر إلى البحر (٥٢) .

وأسسوا ترسانة للسلاح ولبناء السفن الحربية ، وأنشأوا أقوى وأول أسطول عربى وحربى فى التاريخ الحديث ، وكان من أقوى الأساطيل فى المحيط الهندى وبمثابة أداة ردع للأساطيل الأوروبية التى كانت تخشى منه .

واهتمت دولة اليعاربة بالاقتصاد والتجارة والصناعة ، وخاصة السفن والأسلحة وبناء الحصون والقلاع التى لازالت تشهد بروعة وقوة فن العمارة العمانية إلى يومنا هذا .

الخاتمـــة

بهذه الدراسة نكون قد درسنا عوامل سقوط الحكم البرتغالى ، والتى لعبت دوراً فى قيامها سياسة البطش والقهر والتنكيل ، مما جعلها تحمل معها نهايتها ، وأثار روح المقاومة الوطنية والجهاد . وكذلك السيطرة التجارية الاحتكارية وعدم الاهتمام بالتطور الصناعى ، وعدم مسايرة التغير نحو الاقتصاد الرأسمالى وقيام الشركات الاحتكارية .

كل ذلك إضافة إلى التعاون الأنكلو - هولندى فى تقليص النفوذ البرتغالى ، والهزائم التى منيت بها الأساطيل البرتغالية من الأسطول الهولندى فى المحيط الهندى والبريطانى فى جزيرة "هرمز" . وأخيراً سقوط الحكم البرتغالى نهائياً على أيدى اليعاربة ، الذين اهتموا ببناء السفن وصناعة الأسلحة وتطور الاقتصاد فى آن واحد ، برغم الإمكانيات الذاتية المتواضعة ، ولكن بعزيمة وإرادة قوية ذللت الصعاب ، مع تثبيت الحكم السياسى الديمقراطى القائم على الإنتخاب ، وليس حكم الفرد الواحد الدكتاتورى . وكذلك مع الإلتزام بشرعية الإسلام وحكم الإمامة ، الذى يجمع السلطة الزمنية والروحية ، أى السياسية والدين معاً كما فى عهد الخلفاء الراشدين ؛ فقد كان كل ذلك من أسباب نجاح وقوة دولة اليعاربة .

الإحالات والهوامش

(١) د. أحمد بوشراب : مجلة الخليج العربى . العدد (١) عام (١٩٨٩) ص ١٤٠ .

(٢) د. جلال يحيي : العالم الإسلامى الحديث والمعاصر . ص ٤٠٥ .

(٣) د. عبد القادر عبد الله العيدروس . النور السافر ص ٢٧٢ .

(٤) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ١٤ .

(٥) د. بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر . ج١ ص١٤ .

(٦) د. خلدون النقيب : المجتمع والدولة فى خليج والجزيرة العربية ص ٦٤ - ٦٦ .

(٧) د. جمال زكريا قاسم : الخليج العربى عصر التوسع الأوربى الأول ص٧٢ .

(٨) د. خلدون النقيب : المرجع السابق ص٦٦ .

(٩) د. خلدون النقيب : نفس المرجع ص٦٦ .

(١٠) بكنجهام : بعض الملاحظات عن البرتغاليين فى عمان . " حصاد " ندوة الدراسات العمانية ج٦ ص٢٠١ .

(١١) د. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص٩١ .

(١٢) س. بوكسر : " حصاد " ندوة الدراسات العمانية ج٦ ص٢١١ .

(١٣) د. عبد الأمير محمد أمين : المصالح البريطانية فى الخليج العربى ص١٠ .

(١٤) د. خالد العربى : الخليج العربى فى ماضيه وحاضره ص٢٧ .

(١٥) د. بدر الدين عباس الخصوصى . المرجع السابق ص٢٨ .

(١٦) د. حسن إبراهيم : ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية ص٨٨٩ .

(١٧) عباس العصفور : بحوث المؤتمر الأول للتاريخ ص١٣٣ .

(١٨) عباس العصفور : نفس المرجع ص١٣٣ .

(١٩) سليم طه التكريتى : المقاومة العربية فى الخليج العربى ص٥٥ .

(٢٠) جون بى كيلى : تاريخ الخليج ص٨ .

(٢١) د. بدر الدين عباس الخصوصى ص٢٨ .

(٢٢) سى بوكسر : المرجع السابق ص٢٠٦ .

(٢٣) د. خلدون النقيب : المرجع السابق ص٦٦ .

(٢٤) Bernarda Gran : The Timetable of History, p.256

(٢٥) د. هيفاء عبد العزيز الربعى : غزاة فى الخليج العربى ص٢١ .

(٢٦) ج.ج . لوريمر : دليل الخليج ج١ ص٢٠ .

(٢٧) د. خلدون النقيب : المرجع السابق ص٦٧ .

(٢٨) ج.ج . لوريمر : المرجع السابق ص٢٢ .

(٢٩) محمد عدنان مراد : صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربى ص١٣٥ .

(٣٠) سليم طه التكريتى : محمد أمين : المرجع السابق ج٥٥ .

(٣١) د. عبد الأمير محمد أمين : المرجع السابق ص١٠ .

(٣٢) د. خلدون النقيب : المرجع ص٦٨ .

(٣٣) د. عبد الأمير محمد أمين : المرجع السابق ص١٦ .

(٣٤) Laurence Lockhart : Famous Cities of Iran, P.106

(٣٥) د. عبد الأمير محمد أمين : المرجع السابق ص١٦ .

(٣٦) د. بدر الدين عباس الخصوصى : المرجع السابق ص٣٢ .

(٣٧) أمين سعيد : الخليج العربى ص٣٠ .

(٣٨) جميد بن محمد بن زريق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعديين ص ٢٦٣ .

(٣٩) حميد بن محمد بن رزيق المرجع ص٢٦٣ .

(٤٠) د. عبد الأمير محمد أمين : بحوث المؤتمر الدولى للتاريخ ص٦٥٢ .

(٤١) د. عبد الأمير محمد أمين : نفس المرجع ص٦٥٢ .

(٤٢) عائشة السيار : دولة اليعاربة ٥٤ .

(٤٣) عائشة السيار : نفس المرجع ص٥٤ .

(٤٤) عبد الله بن خلفان بن قيصر : سيرة الإمام ناصر مرشد ص٦٣ .

(٤٥) سليمان محمد الغنام : ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية ج٢ ص١١٨ .

(٤٦) سليمان محمد الغنام : نفس المرجع ص١١٨ .

(٤٧) عبد الله بن خلفان بن قيصر : المرجع السابق ص٦٦ .

(٤٨) د. عبد الأمير محمد أمين : بحوث المؤتمر الدولى للتاريخ ص٦٥٤ .

(٤٩) بكنجهام : المرجع السابق ص٢٠١ .

(٥٠) بكنجهام : نفس المرجع ص٢٠١ .

(٥١) Charles Belgrave : The Pirate Coast, p.14

(٥٢) عائشة السيار : المرجع السابق ص٥٨ .

(٥٣) عائشة السيار : نفس المرجع ص ٥٨ .

المراجع والمصادر

أولا - المصادر :

١) حميد بن محمد بن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين . وزارة التراث القومى والثقافة . مسقط ١٩٧٧

٢) عبد الله بن خلفان بن قيصر : سيرة الإمام ناصر بن مرشد . وزارة التراث القومى والثقافة . مسقط ١٩٨٠

٣) عبد القادر عبد الله العيد روس : النور السافر . القاهرة ١٠١٢ هـ

ثانيا - المراجع :

١) أمين سعيد الخليج العربى . دار الكاتب العربى . بيروت .

٢) بدر الدين عباس الخصوصى (دكتور) : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر . ذات السلاسل . الكويت ١٩٨٤ .

٣) جون بى كيلى : بريطانيا والخليج . وزارة التراث القومى والثقافة . مسقط .

٤) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج : القسم التاريخى : ترجمة وطباعة دولة قطر الدوحة .

٥) جمال زكريا قاسم (دكتور) : الخليج العربى عصر التوسع الأوربى . الأول دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٨٥ .

٦) جلال يحى (دكتور) : العالم العربى الإسلامى الحديث والمعاصر : المكتب الجامعى الحديث . الإسكندرية ١٩٨٢

٧) خالد العربى (دكتور) : الخليج العربى فى ماضيه وحاضره . دار الجاحظ . بغداد ١٩٧٢

٨) خلدون النقيب (دكتور) : المجتمع والدولة فى الخليج والجزيرة العربية . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ١٩٨٧

٩) سليم طه التكريتى : المقاومة العربية فى الخليج العربى . وزارة الثقافة والأعلام . دار الرشيد بغداد ١٩٨٢

١٠) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى مكتبة الأنجلو - المصرية . القاهرة ١٩٧٤

١١) عبد الأمير محمد أمين (دكتور) : المصالح البريطانية فى الخليج العربى مركز دراسات الخليج العرب . روى مسقط ١٩٨٣

١٢) عائشة السيار : دولة اليعاربة . وزارة الإعلام دولة الإمارات العربية المتحدة . أبوظبى ١٩٧٥

١٣) محمد عدنان مراد : صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربى دار دمشق ١٩٨٤

١٤) مصطفى عقيل الخطيب : التنافس الدولى فى الخليج العربى ١٦٢٢ - ١٧٦٣ والمكتبة العربية . بيروت ١٩٨١

١٥) هيفاء عبد العزيز الربيعى (دكتورة) : غزاة فى الخليج . دار الكتب للطباعة والنشر . جامعة الموصل ١٩٨٩

ثالثا - الدوريات العربية وبحوث الندوات :

١) أحمد بوشراب (دكتور) مجلة الخليج العربى العدد (١) لسنة ١٩٨٤

٢) بكنجهام : بعض الملاحظات عن البرتغاليين فى عمان : ندوة الدراسات العمانية " حصاد ج ٦ . وزارة التراث القومى والثقافة . مسقط ١٩٨٠

٣) حسن ابراهيم (دكتور) ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية . لجنة التاريخ الدوحة ١٩٧٦

٤) س . بوكسر : ملاحظات جديدة عن الصلات بين العمانيين والبرتغال . ندوة الدراسات العمانية . حصاد ج ٦ .وزارة التراث القومى والثقافة . مسقط ١٩٨٠

٥) سليمان محمد الغنام (دكتور) : بحوث مقدمة الى ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية . الجزء الثانى . قسم التاريخ . جامعة الرياض ١٩٧٩ .

٦) عباس العنصفور : بحوث المؤتمر الدولى للتاريخ ٢٥ / ٣ / ١٩٧٣ منشورات وزارة الإعلام . العراق . بغداد ١٩٧٩

٧) عبد الأمير محمد أمين (دكتور) بحوث المؤتمر الدولى للتاريخ ٢٥ / ٣ / ١٩٧٣ منشورات وزارة الإعلام . بغداد ١٩٧٩

رابعا - المراجع باللغة الإنجليزية .

1) Bernaharda Grun : The Timetablc of History , Atouchstone Book - New York 1979.

2) Charles Belgrave : The Pirate Coast. Librairic De Liban , Beirut , 1972 .

3) Laurence Lockhart : Famous Cities of Iran , Published Walter Pearce & Co. Brentford , Middlescx 1939 .